الاكتشافات الأثرية بين الحقيقة العلمية والصخب الإعلامي

أحمد لاش وهالة السيوف ونيرمين الفايز

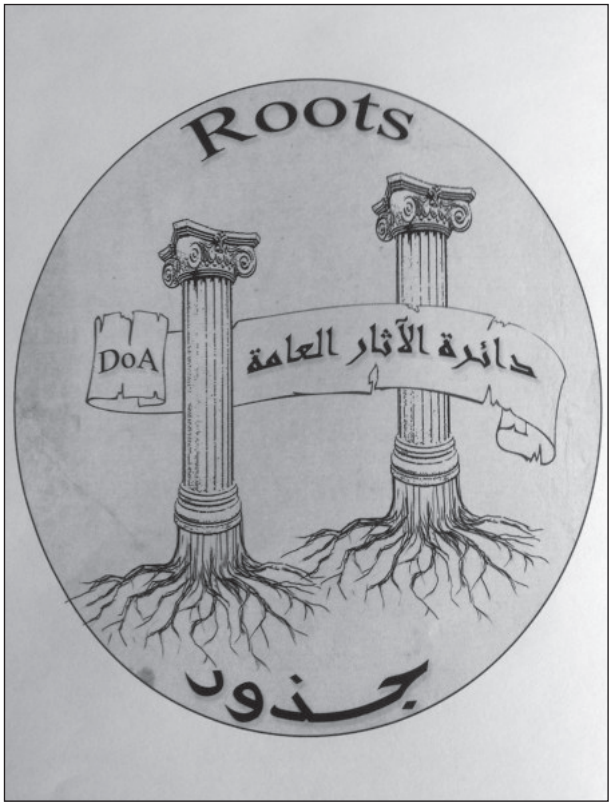

١. شعار مشروع جذور.

مقدمة

ارتبط علم الآثار منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً بما تنازعته النفس البشرية من ولعها بالإستكشاف وسبر أغوار الماضي واستحضاره والولوج إلى المجهول منه، فالنظرة العامة للماضي لدى الغالبية من الناس تتسم بنوع من التبجيل والحنين ونزع مافي ذلك الماضي من شوائب ليتوأم مع النظرة المثالية التي خلقناها في أنفسنا لذلك الماضي، كما قد يولع الكثير من الناس بوصف الكثير من الأحداث التاريخية أو المظاهر الأثرية بالتوصيفات التي تتسم بالغموض والخروج عن قوانين الطبيعة ومألوف الأشياء. في المقابل فإن علم الآثار هو علم يقوم على الدلائل والبراهين المادية والتحليلات العلمية بُغية الوصول إلى الحقيقة المجردة، ومن أكثر الأمور إشكالية هو ما يقوم به البعض من استنطاق المعلم الأثري وتقويله ما يريد الباحث سماعه، بناءً على تعصب الباحث الأثري لمعتقده الديني أو فكره السياسي، وذلك بالإستعجال في الحكم على المُكتشف الأثري باسقاط ما تشبّع به فكر ذلك الباحث من رواية تاريخية عن ذلك المُكتشف الأثري، ومما يزيد الطين بِلّة عندما يُسارع ذلك الباحث إلى وسائل الإعلام ليُخاطب العامة بنتائج اكتشافاته التي لم تنل نصيبها بعد من البحث والدراسة والتحقيق، ليدور حولها ذلك الصخب الإعلامي الذي تكون مضّاره في الغالب على المُكتشف الأثري أكثر من منافعه، وفي منطقة كمنطقة الأردن وفلسطين فإن التنازع على الرواية التاريخية يُلقي بظلاله على الحاضر ليكون أحد أدوات الصراع الحديث الذي تعيشه المنطقة منذ بدايات القرن العشرين. ومن خلال سلسة مقالاتنا ضمن مشروع جذور[١] (**الشكل ١**)، فإننا سنتطرق في هذا المقال لمثال عن المشاريع الأثرية التي حظيت بصخب إعلامي في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، والتي شغلت حيزاً من حديث العامة والصحافة والإعلام لفترة من الزمن ثم خبت تلك الضجة الإعلامية وكأن الحديث عنها لم يكن وذلك بسبب عدم تطابق الرواية الإعلامية مع الحقيقة العلمية المُكتشفة.

١. أحد المشاريع الاستراتيجية لدائرة الآثار العامة، والذي يهدف إلى توثيق وحوسبة كافة الوثائق والمراسلات والتقارير الخاصة بدائرة الآثار العامة منذ نشأتها.

اكتشاف مدينتي سدوم وعمورة
بعثة رالف بيني من سنة ١٩٥٩ إلى ١٩٦٥

لقد تناولت الكتب السماوية على اختلافها قصة أولئك القوم الذين كانوا يرتكبون الفواحش ولايتناهون عنها والذين أرسل الله لهم نبيه لوط عليه السلام لهدايتهم ونهيهم عما كانوا يفعلون، إلا أن جهوده في إصلاحهم لم تفلح فأمره الله سبحانه وتعالى بالخروج من أرضهم وأن يأخذ معه أهله إلا إمرأته، لينصب على أولئك القوم غضب الله وسخطه، وقد تطرقت بعض الكتب السماوية إلى تلك القصة بشيء من التفصيل كما ورد في العهد القديم على سبيل المثال، من تسميةٍ لبلدة أولئك القوم وهي سدوم وعموره ووصف موقعها، في حين لم يتطرق الخبر القرآني إلى تسمية بلدتهم أو مكانها بل اكتفى بذكر الفواحش التي كانوا يفعلونها والعذاب الذي وقع عليهم. وقد ظل تحديد مكان هاتين البلدتين مجهولاً لأتباع الديانات السماوية الثلاث، بحيث شكلت هذه النقطة هاجساً لبعض المشتغلين بالآثار ممن عملوا على اسقاط الرواية الدينية على الموقع الأثري، ومن هؤلاء السيد رالف بيني Ralph E. Baney رئيس جمعية التقارب المسيحي في مدينة كنساس الأمريكية، "والتي وجِد فرع لها في مدينة بيت لحم" وذلك بوصفه خبيراً في الغطس والتصوير تحت الماء، والذي تقدم لدائرة الآثار العامة في شهر كانون الأول من سنة ١٩٥٩ بمشروع للغطس في أعماق منطقة اللسان في البحر الميت للبحث عن بقايا مدينتي سدوم وعمورة الوارد ذكرهما في كتاب العهد القديم، وفي بلد كالأردن تتسم سياسته بالإنفتاح والتعايش الديني وقبول الآخر، لم يكن لديه ما يمنع من فتح باب الإستكشاف في تلك المنطقة، بل على العكس قام بتشجيع تلك البعثة والترحيب بها ودعمها، علّها تخرج باكتشافات أثرية تشكل مقصداً لمزيد من الزائرين والسياح لهذا البلد، ومن ناحية أخرى فإن هذا لايتعارض مع الرواية الدينية فيما يختص بقوم نبي الله لوط وما حلّ بهم من العذاب، والتي تؤمن بها الغالبية المسلمة من سكان المملكة. وعليه فقد تمت الموافقة على طلب السيد رالف بيني بتاريخ ١٩٦٠/١/١٠ وإعطاؤه التصريح الرسمي للبدء بتلك المهمة لغاية ١٩٦٠/٣/٣١، بالرغم من التحفظات التي أبداها البعض حول كفاءة السيد بيني والشبهات التي تحوم حوله. ويتضح من خلال المراسلات الأولى التي قام بها السيد بيني قبل مباشرته بالعمل، شغفه بوسائل الإعلام والظهور الإعلامي (**الشكلين ٢، ٣**)، فقد كان من ضمن فريقه مندوب صحفي لتغطية أعمال البعثة ونشاطاتها ونشرها في وسائل الإعلام الأمريكية، كما كان من ضمن جدول أعماله قبل البدء بمباشرة العمل عقد مؤتمر مع مدير عام دائرة الآثار في ذلك الوقت الدكتور عوني الدجاني وبعض المسؤوليين الآخرين والتقاط صورة لهم بجانب أدوات الغطس التي سيتم استعمالها، كما طالب بتنظيم معرض في نادي الملك حسين لمعدات الغطس التي سيقوم بجلبها ليتم تصويره ونشره في وسائل الإعلام، كما طالب بتوفير طائرة مروحية له للقيام بأعمال المسح والتصوير فوق منطقة البحر الميت ومحيطها وتأمينه بسيارتي جيب وعدد من الحراس ورجال الأمن. لم يمض وقت طويل على صدور الموافقة الرسمية للسيد بيني للبدء بمشروع الغطس حتى وصل إلى الأردن بمعية فريقه ومعداتهم ليبدأ عمله هناك مع بدايات شهر آذار ١٩٦٠، إلا أنه بعد بضعة أسابيع قام برفع تقريره الأولي إلى دائرة الآثار العامة بتاريخ ١٩٦٠/٣/٢٣ يزف إليها به خبر اكتشافه لما يثبت وجود مدينتي سدوم وعمورة مغمورتان بمياه البحر الميت، فقد أشار السيد بيني أنه من خلال عملية مسح شملت ٢٦٧ ميلاً من المصب الشرقي لنهر الأردن والشاطئ الشرقي والغربي للبحر الميت، وبعد الغوص لعمق ١٧٠ قدماً في مياه البحر الميت، فقد تم اكتشاف طريق قديم يصل شاطئ البحر الميت بجزيرة تقع في وسطه، كما قام باكتشاف ما مجموعه تسعة تلال متفاوتة الإتساع تغمرها مياه البحر الميت تنتشر بها بقايا جذور وسعف النخيل، وكذلك اكتشاف قناة قديمة تمتد من الشاطئ الشرقي للبحر الميت إلى منطقة اللسان، وأنه متيقن من وجود مدينتي سدوم وعمورة في تلك المنطقة المغمورة بالمياه بناءً على تلك الدلائل. مالبث خبر هذا الاكتشاف أن وجد طريقه للصحافة والإعلام، لينتشر خبر اكتشاف مدينتي سدوم وعمورة انتشار النار بالهشيم، وتتداوله معظم وكالات الأنباء العالمية والمحلية، بدون أن يتم التحقق من صحة ما أورده السيد بيني والتي يشير إليها كدلائل مادية دامغة على اكتشافه. وقد يكون صحة تصريح كهذا ينطلي على العامة وغير المختصين،

٢. جانــب من الحملــة الإعلامية لبعثة الإستكشاف.

٣. جانــب من الحملــة الإعلامية لبعثة الإستكشاف.

لكنه لا ينطلي على أي باحث أكاديمي مختص بالآثار، فما أن وصل تقرير السيد بيني إلى مساعد مدير عام دائرة الآثار في ذلك الوقت، الأستاذ محمود العابدي حتى نسفه عن بكرة أبيه وأوصى بأن لايتم التصريح للسيد بيني بالعمل كونه لا يمتلك أدنى المؤهلات التي تخوله للعمل الأثري والحكم على طبيعة الأشياء، فالقناة الأثرية التي يدّعي السيد بيني وجودها والتي تمتد من الشاطئ الشرقي للبحر الميت إلى منطقة اللسان، ماهي إلا قناة حديثة قامت ببنائها النقطة الرابعة الأمريكية لمنع تسرب مياه البحر الميت المالحة إلى مياه البرك الرومانية العذبة بالقرب من منطقة اللسان، أما الطريق القديم الذي يدّعي السيد بيني اكتشافه، فما هو في حقيقة الأمر سوى طريق حديث بعرض ثلاثة أمتار بني من قبل السيد شكري ديب لمصلحة شركة البوتاس الفلسطينية السابقة وذلك لنقل أكياس الملح من جنوب البحر الميت إلى كاليه، وقد رُدمت تلك الطريق أثناء الحرب العربية الفلسطينية سنة ١٩٤٨، أما بخصوص مدينتي سدوم وعمورة التي يدّعي السيد بيني اكتشافهما، فهو لم يأتِ بأي صورة يمكن أن يتم التقاطها لهما بواسطة آلات التصوير التي بحوزته كما

أنه لم يقدم أي دليل مادي على وجودهما، بالإضافة إلى أن منطقة الخطر للغوص في مياه البحر الميت المالحة المشهور بكثافته التي تزيد بنسبة ٣٥٪ عن باقي البحار لا يتجاوز عمقها ١٠٠ قدم، بينما يقول السيد بيني بأنه قام بالغطس لعمق ١٧٠ قدم، أما بقايا الأشجار التي أشار لها السيد بيني فهي ليست في موقعها الأصلي بل جرفتها مياه الأمطار والسيول من الجانب الغربي وقد لاحظ وجودها السيد لانكستر هاردنغ مدير الآثار الأردنية السابق، وكتب عنها قبل ثلاثين عاماً من وصول بعثة السيد بيني.

لم يلبث خبر اكتشاف بعثة السيد بيني لمدينتي سدوم وعمورة إلا أن خبا فجأة في وسائل الإعلام المختلفة كما ظهر فجأة، ولم يعد يتم التطرق إليه، بعدما ملاء الأوساط الإعلامية صخباً وضجيجاً. علماً بأن السيد بيني قد صُرّح له بالعودة والغطس مجدداً في مياه البحر الميت في ربيع عام ١٩٦٤، إلا أنه في زيارته تلك لم يتطرق إلى أي اكتشافات حديثة في حين قام بالتركيز على تسويق جهاز غطس حديث يمكن حمله بسهولة !!!.

وبهذا طويت صفحة من الصخب الإعلامي التي رافقت بعثة السيد بيني وادّعائه باكتشاف مدينتي سدوم وعمورة التوراتيتين، فعلم الآثار لا يعترف سوى بالحقيقة المادية المجردة وهي الفيصل في الحكم على أي اكتشاف أثري.